تفسير سورة الحديد

وهى مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له ما فى السموات والأرض ، أى : من الحيوانات والنباتات ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء :٤٤] . وقوله: ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ أى : الذى قد خضع له كل شىء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى خلقه وأمره وشرعه ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى : هو المالك المتصرف فى خلقه ، فيحيى ويميت ، ويعطى من يشاء ما يشاء ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ أى : ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ : وهذه الآية هى المشار إليها فى حديث العرباض بن سارية : أنها أفضل من ألف آية . وروى أبو داود عن أبى زُمَيل قال :سألت ابن عباس فقلت : ما شىء أجده فى صدرى ؟ قال:ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلم به . قال : فقال لى : أشىء من شك ؟ قال ـ وضحك ـ قال : ما نجا من ذلك أحد . قال: حتى أنزل الله : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية [يونس:٩٤] قال: وقال لى : إذا وجدت فى نفسك شيئاً فقل: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

وقد اختلفت عبارات المفسرين فى هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشر قولا . وقال البخارى : قال يحيى : الظاهر على كل شىء علماً ، والباطن على كل شىء علماً (٢) . وقد ورد فى ذلك أحاديث ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم : « اللهم ، رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ، وأنت الباطن فليس دونك شىء . اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر » . ورواه مسلم عن سُهَيل(٣) قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام : أن يضطجع على شقه الأيمن ، ثم يقول: اللهم ، ربّ السموات وربّ الأرض وربّ العرش العظيم ، ربّنا وربّ كل شىء ، فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته ، اللهم، أنت الأول فليس قبلك شىء ، وأنت الآخر فليس بعدك شىء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء ،

(١) أبو داود (٥١١٠) وصححه الألبانى .
(٢) البخارى (١٣ / ٣٦١ فتح) .
(٣) فى المطبوعة : « سهل » وهو خطأ ، صوابه ما أثبتناه كما عند مسلم وأحمد وفى المخطوطة .

وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر ». وكان يَروى ذلك ، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ (١) .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم أخبر باستوائه على العرش بعد خلقهن . وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهها في سورة « الأعراف (٢) » بما أغنى عن إعادته هاهنا . ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ ﴾أى : يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ من زرع ونَبات وثمار ، كما قال : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

وقوله :﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من الأمطار ، والثلوج والبرَد ، والأقدار والأحكام مع الملائكة الكرام ، وقد تقدم فى سورة « البقرة » أنه ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يُقرّرها فى المكان الذى يأمر الله به حيث يشاء تعالى.﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أى: من الملائكة والأعمال ، كما جاء فى الصحيح: « يُرْفَع إليه عَمَلُ الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل» (٣) .

وقوله :﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ اى : رقيب عليكم ، شهيد على أعمالكم حيث أنتم ، وأين كنتم ، من بر أو بحر ، فى ليل أو نهار ، فى البيوت أو القفار ، الجميع فى علمه على السواء ، وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم ، كما قال: ﴿ أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [هود :٥] . وقال: ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ [الرعد: ١٠]، فلا إله غيره ولا رب سواه . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجبريل ، لما سأله عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (٤) .

وكان الإمام أحمد ينشد هذين البيتين :

إذَا ما خَلَوتَ الدهرَ يوماً فَلا تَقُلْ ... خَلَوتُ ولكن قُــل : عَلَيّ رَقيبُ

ولاَ تَحْسَبَنّ اللهَ يَغْفَــلُ سَاعَـةً ... وَلا أنّ ما يخفَـى عَليـه يَغيــبُ

وقوله:﴿ لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ اى : هو المالك للدنيا والآخرة، كما قال : ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ﴾ [الليل:١٣] ،وهو المحمود على ذلك ، كما قال:﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ ﴾ [القصص:٧٠]، وقال: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [سبا:١] . فجميع ما فى السموات والأرض ﴿ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا .

(١) المسند (٢ / ٤٠٤) ومسلم (٢٧١٣ / ٦١) .
(٢) عند الآية (٥٤) .
(٣) مسلم (١٧٩ / ٢٩٣)
(٤) البخارى (٥٠) ومسلم (٨ / ١) .

﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم:٩٣ـ٩٥] . ولهذا قال: ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ أى: إليه المرجع يوم القيامة، فيحكم فى خلقه بما يشاء ،وهو العادل الذى لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة ، بل إن يكن أحدهم عمل حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها ﴿ وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٤٠] . كما قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] .

وقوله : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ أى : هو المتصرف فى الخلق ، يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين . وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً ، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه ، ﴿ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى : يعلم السرائر وإن دقت ، وإن خفيت .

﴿ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَاتٍۭ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

أمر تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل،والدوام والثبات على ذلك والاستمرار، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه، أى : مما هو معكم على سبيل العارية ، فإنه قد كان فى أيدى من قبلكم ثم صار إليكم ، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال فى طاعته ، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه .

وقوله: ﴿ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾: فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك ، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه ، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك ، أو يعصى الله فيه فتكون قد سعيت فى معاونته على الإثم والعدوان . روى الإمام أحمد ، عن عبد الله بن الشخّير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول : « ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾ [التكاثر:١] ، يقول ابن آدم : مالى مالى ! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ؟ » .ورواه مسلم ، وزاد : « وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس »[1] .

وقوله: ﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ترغيب فى الإيمان والإنفاق فى الطاعة ، ثم قال : ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾ ؟ أى : وأى شىء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم ،يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به ؟ . وقد روينا

(١) المسند (٤/ ٢٤) ومسلم (٢٩٥٨ / ٤).

فى الحديث من طُرُق فى أوائل شرح « كتاب الإيمان » من صحيح البخارى: أن رسول ﷺ قال يوماً لأصحابه : « أىّ المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ » قالوا : الملائكة. قال: « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟» قالوا: فالأنبياء. قال:« وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم؟». قالوا : فنحن ؟ قال: « وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيؤون بعدكم ، يجدون صُحُفاً يؤمنون بما فيها ».وقد ذكرنا طرفاً من هذا فى أول سورة « البقرة » [1] عند قوله:﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣] . وقوله : ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ كما قال:﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ [المائدة:٧] . ويعنى بذلك : بيعة الرسول ﷺ .وزعم ابن جرير : أن المراد بذلك الميثاق الذى أخذ عليهم فى صلب آدم ، وهو مذهب مجاهد ، فالله أعلم .

وقوله:﴿ هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أى :حججاً واضحات ،ودلائل باهرات، وبراهين قاطعات ،﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى : من ظلمات الجهل والكفر ، والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان ، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى: فى إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس، وإزاحة العلل وإزالة الشبه .

ولما أمرهم أولاً بالإيمان والإنفاق ،ثم حثهم على الإيمان،وبين أنه قد أزال عنهم موانعه،حثهم أيضاً على الإنفاق فقال :﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ أى: أنفقوا ولا تخشَوا فقراً وإقلالاً ، فإن الذى أنفقتم فى سبيله هو مالك السموات والأرض ، وبيده مقاليدهما ، وعنده خزائنهما ، وهو مالك العرش بما حوى ، وهو القائل : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبا:٣٩] ،وقال: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦] فمن توكل على الله أنفق ، ولم يخش من ذى العرش إقلالاً ، وعلم أن الله سيخلفه عليه .

وقوله: ﴿لاَ يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ﴾ أى: لا يستوى هذا ومن لم يفعل كفعله،وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً ، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون،وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ؛ ولهذا قال : ﴿ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ . والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا فتح مكة . وعن الشعبى وغيره أن المراد بالفتح هاهنا : صلح الحديبية ، وقد يُستدل لهذا القول بما روى الإمام أحمد : عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ؟ فبلغنا أن ذلك ذُكر للنبى ﷺ فقال: « دعوا لى أصحابى ، فوالذى نفسى بيده، لو أنفقتم مثل أحد ـ أو : مثل الجبال ـ ذهباً ، ما بلغتم أعمالهم » [2] . ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وكانت هذه المشاجرة بينهما فى بنى جَذيمة الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد بعد الفتح، فجعلوا يقولون: « صبأنا ، صبأنا » ، فلم يحسنوا أن يقولوا : « أسلمنا » ، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم ، فخالفه عبد الرحمن بن عوف ،وعبد الله بن عمر وغيرهما. فاختصم خالد وعبد الرحمن

---

(١) ومضى تخريجه هناك .

(٢) المسند (٣/ ٢٦٦). وهو عند البخارى بلفظ قريب منه (٢٦٧٣) ومسلم (٢٥٤٠ / ٢٢١).

بسبب ذلك (١) . والذى فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ، ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نَصيفه » (٢) .

وقوله : ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ يعنى: المنفقين قبل الفتح وبعده ، كلهم لهم ثواب على ما عملوا، وإن كان بينهم تفاوت فى تفاضل الجزاء ، كما قال: ﴿ لا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٩٥] . وهكذا الحديث الذى فى الصحيح : «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير» (٣) ، وإنما نبّه بهذا لئلا يُهدر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه؛ فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه ، مع تفضيل الأول عليه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أى : فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ،ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وما ذلك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام ، وإنفاقه فى حال الجهد والقلة والضيق . وفى الحديث: « سبق درهم مائة ألف» (٤). ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر ، رضى الله عنه ، له الحظ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله ، عز وجل ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها .

وقوله : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ قال عمر بن الخطاب: هو الإنفاق فى سبيل الله، وقيل:هو النفقة على العيال . والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق فى سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة ، دخل فى عموم هذه الآية ؛ ولهذا قال : ﴿ مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ﴾، كما قال فى الآية الأخرى :﴿ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥] أى : جزاء جميل ، وورزق باهر ــ وهو الجنة ــ يوم القيامة .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِىَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين: أنهم يوم القيامة يسعَى نورهم بين أيديهم فى عَرصات القيامة بحسب أعمالهم ،كما قال عبد الله بن مسعود فى قوله: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم مَن نوره مثل النخلة ،ومنهم مَن

(١) البخارى (٧١٨٩) .
(٢) البخارى (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١ / ٢٢٢).
(٣) مسلم (٢٦٦٤ / ٣٤) .
(٤) فى المخطوطة :« أضعافا كثيرة وله أجر كريم » وهو خطأ ،صوابه ما أثبتناه .

نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً مَن نوره فى إبهامه يتّقد مرة ويطفأ مرة . ورواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير . وقال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول : « من المؤمنين من يضىء نُوره من المدينة إلى عَدَن أبين وصنعاء فدون ذلك ، حتى إن من المؤمنين من يضىء نوره موضع قدميه »(١) . وقال سفيان الثورى ، عن حُصَين ، عن مجاهد عن جُنَادة بن أمية قال: إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم ، وسيماكم وحُلاكم ، ونجواكم ومجالسكم ، فإذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان ، هذا نورك. يا فلان ، لا نور لك. وقرأ: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ . وقال الضحاك: ليس أحد إلا يعطى نوراً يوم القيامة ، فإذا انتهوا إلى الصراط طُفئ نور المنافقين، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفئ نور المنافقين ، فقالوا : ربنا، أتمم لنا نورنا . وقال الحسن فى قوله : ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ : يعنى : على الصراط .

وقوله : ﴿ وَبِأَيْمَانِهِم ﴾ قال الضحاك: أى وبأيمانهم كتبهم ، كما قال: ﴿ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ [الإسراء:٧١]. وقوله: ﴿ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ أى: يقال لهم : بشراكم اليوم جنات، أى: لكم البشارة بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكثين فيها أبداً ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

وقوله : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ : وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة فى العرصات من الأهوال المزعجة ، والزلازل العظيمة، والأمور الفظيعة ، وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله ، وعمل بما أمر الله ، وترك ما عنه زجر . قال سليم بن عامر: خرجنا على جنازة فى باب دمشق، ومعنا أبو أمامة الباهلى ، فلما صلى على الجنازة وأخذوا فى دفنها، قال أبو أمامة : أيها الناس ، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم فى منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر ، وهو هذا ـ يشير إلى القبر ـ بيت الوحدة ، وبيت الظلمة ، وبيت الدود ، وبيت الضيق ، إلا ما وسع الله ، تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة ، فإنكم فى بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله ، فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فتغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً، وهو المثل الذى ضربه الله فى كتابه ، قال: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠] ، فلا يستضىء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضىء الأعمى بنور البصير، ويقول المنافقون للذين آمنوا : ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ ، وهى خدعة الله التى خدع بها المنافقين حيث قال : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء:١٤٢]. فيرجعون إلى المكان الذى قسم فيه النور ، فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ، ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ الآية. يقول سليم بن عامر : فما يزال المنافق مغتراً حتى يقسم النور، ويميز الله بين المؤمن والمنافق . وقال ابن عباس : بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله نوراً، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه، وكان النور دليلا من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ: ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾، فإنا كنا معكم فى الدنيا. قال المؤمنون: ﴿ ارْجِعُوا ﴾ من حيث جئتم من الظلمة ، فالتمسوا عنالك النور .

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٧ / ١٢٨) .

وقوله : ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾: قال الحسن ، وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم :هو الذى قال الله تعالى : ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: ٤٦] . وهكذا روى عن مجاهد وغير واحد ، وهو الصحيح . ﴿ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ ﴾ أى : الجنة وما فيها ﴿ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ أى : النار . قاله قتادة ، وابن زيد ، وغيرهما. قال ابن جرير: وقد قيل : إن ذلك السور سور بيت المقدس عند وادى جهنم. ثم روى عن عبادة بن الصامت ، وكعب الأحبار ، وعلى بن الحسين زين العابدين ، نحو ذلك. وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالاً لذلك ، لا أن هذا هو الذى أريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس المسجد وما وراءه من الوادى المعروف بوادى جهنم ؛ فإن الجنة فى السموات فى أعلى عليين ، والنار فى الدركات أسفل سافلين . وإنما المراد بذلك :سورٌ يُضرَب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فإذا استكملوا دُخولهم أغلق الباب وبقى المنافقون من ورائه فى الحيرة والظلمة والعذاب ، كما كانوا فى الدار الدنيا فى كفر وجهل وشك وحيرة . ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ﴾ أى : ينادى المنافقون المؤمنين : أما كنا معكم فى الدار الدنيا ، نشهد معكم الجمعات ، ونصلى معكم الجماعات، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم الغزوات، ونؤدى معكم سائر الواجبات؟ ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ أى: فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين:بلى ، قد كنتم معنا ، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ قال بعض السلف : أى فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصى والشهوات ﴿ تَرَبَّصْتُمْ ﴾ أى : أخرتم التوبة من وقت إلى وقت .

وقال قتادة :﴿ وَتَرَبَّصْتُمْ ﴾ بالحق وأهله ﴿ وَارْتَبْتُمْ ﴾ أى: بالبعث بعد الموت ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ ﴾ أى: قلتم : سيغفر لنا . وقيل : غرتكم الدنيا ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ أى : مازلتم فى هذا حتى جاء الموت ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ أى : الشيطان .قال قتادة : كانوا على خدعة من الشيطان ، والله مازلوا عليها حتى قذفهم الله فى النار . ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين : أنكم كنتم معنا : بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم فى حيرة وشك ، فكنتم تُراؤون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً . قال مجاهد : كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرونهم ، وكانوا معهم أمواتاً ، ويعطون النور جميعاً يوم القيامة ، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور ، ويُماز بينهم حينئذ . وهذا القول من المؤمنين لا ينافى قولهم الذى أخبر الله به عنهم ، حيث يقول وهو أصدق القائلين:﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ . فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ . عَنِ الْمُجْرِمِينَ . مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ. وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ. وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٣٨ ـ ٤٧] ، فهذا إنما خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ. ثم قال تعالى :﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر:٤٨] ، كما قال تعالى هاهنا: ﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ، ما قبل منه .

وقوله :﴿ مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أى : هى مصيركم وإليها منقلبكم﴿ هِيَ مَوْلَاكُمْ ﴾ أى : هى أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم ، وبئس المصير .

ربع ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا

ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول الله تعالى: أما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله، أى: تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن، فتفهمه وتنقادُ له وتسمع له وتطيعه. عن ابن عباس أنه قال: إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن ، فقال: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية ، رواه ابن أبى حاتم ، ثم روى هو ومسلم عن ابن مسعود ، رضى الله عنه ، قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾الآية إلا أربع سنين (١).

وقوله: ﴿ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ : نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى ،لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراء ظهورهم ،وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال فى دين الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم، فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد . ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أى: فى الأعمال ، فقلوبهم فاسدة ،وأعمالهم باطلة . كما قال : ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة :١٣] ، أى : فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه ، وتركوا الأعمال التى آمروا بها ، وارتكبوا ما نُهوا عنه ؛ ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم فى شىء من الأمور الأصلية والفرعية .

وقوله : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾: فيه إشارة إلى أنه ، تعالى، يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدى الحيارى بعد ضلتها ، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحيى الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتّان الوابل، كذلك يهدى القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الإضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذى هو لما يشاء فعال ،وهو الحكم العدل فى جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عما يثيب به المُصَّدِّقين والمُصَّدِّقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ، ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ أى: دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله ، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً ؛ ولهذا قال : ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾ أى : يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزداد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك، ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ أى: ثواب جزيل حسن، ومرجع صالح ومآب حسن.

(١) مسلم (٣٠٢٧ / ٢٤) .

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾: هذا تمام الجملة ، وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون . قال ابن عباس في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ : هذه مفصولة ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ . وقال أبو الضحى: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ ثم استأنف الكلام فقال: ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾. وهكذا قال مسروق ، والضحاك ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم . وقال عبد الله [بن مسعود] في قوله: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ قال: هم ثلاثة أصناف : يعني المصدقين ، والصديقين ، والشهداء ، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء:٦٩] ، ففرق بين الصديقين والشهداء ، فدل على أنهما صنفان . ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد ، كما رواه الإمام مالك بن أنس عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: « إن أهل الجنة ليتراؤون أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراؤون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم ». قالوا : يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال:« بلى ، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » . اتفق البخاري ومسلم على إخراجه [١] . وقال آخرون : بل المراد من قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فأخبر عن المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون وشهداء. حكاه ابن جرير عن مجاهد .

وقال عمرو بن ميمون في قوله: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ قال : يجيؤون يوم القيامة معاً كالإصبعين.

وقوله : ﴿وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أي : في جنات النعيم ، كما جاء في الصحيحين : « إن أرواح الشهداء في حواصل طير خُضْر تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال: ماذا تريدون ؟ فقالوا : نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فيك فنقتل كما قُتلنا أول مرة . فقال: إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون » [٢] . وقوله: ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ أي: لهم عند ربهم أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم ،وهم في ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الاعمال .

كما روى الإمام أحمد عن أبي يزيد الخولاني قال: سمعت فضالة بن عُبَيد يقول :سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت النبي ﷺ يقول: « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان ، لقي العدو فصدق الله فقتل ، فذلك الذي ينظر الناس إليه هكذا ــ ورفع رأسه حتى سقطت قَلَنْسُوة رسول الله ﷺ أو قلنسوة عمر ــ والثاني مؤمن لقي العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح ، جاءه سهم غَرْب فقتله ، فذاك في الدرجة الثانية ، والثالث رجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئاً لقي العدو فصدق الله حتى قتل، فذاك في الدرجة الثالثة، والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافاً كثيراً،لقي العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك في الدرجة الرابعة » [٣] .

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾: لما ذكر السعداء ومآلهم، عطف بذكر

---

(١) لم أعثر عليه في الموطأ ورواه البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١ / ١١).

(٢) مسلم (١٨٨٧/ ١٢١) ولم يعزه صاحب التحفة (٧/ ١٤٥) للبخاري.

(٣) المسند (١٥٠)وقال الشيخ أحمد شاكر :« إسناده حسن » .

الأشقياء وبين حالهم .

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾

يقول تعالى مُوهناً أمر الحياة الدنيا ومحقراً لها : ﴿ أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾ أى : إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا ، كما قال : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾ [آل عمران: ١٤] . ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا فى أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال : ﴿كمثل غيث﴾ وهو : المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس، كما قال: ﴿ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ﴾ [الشورى: ٢٨]

وقوله : ﴿ أعجب الكفار نباته ﴾ أى : يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذى نبت بالغيث، وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص شىء عليها وأميل الناس إليها، ﴿ ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما ﴾ أى : يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً نضرا ، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً ، أى : يصير يَبَساً متحطماً ، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء ، والإنسان كذلك يكون فى أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف ، بهى المنظر ، ثم إنه يشرع فى الكهولة فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ، ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه الشىء اليسير ، كما قال تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ [الروم: ٥٤] . ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة ، حذّر من أمرها ورغّب فيما فيها من الخير ، فقال: ﴿ وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ أى : وليس فى الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا : إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من الله ورضوان.

وقوله: ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ أى: هى متاع فانٍ غارٌ لمن ركن إليه ، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها ، وهى حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة . روى ابن جرير : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقرؤوا : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ » . وهذا الحديث ثابت فى الصحيح بدون هذه الزيادة [١]، والله أعلم . وروى الإمام أحمد عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « لَلْجنة أقرب

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٧/ ١٣٤) والبخارى (٦٤١٥) .

إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك». انفرد بإخراجه البخاري(١). ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان، وإذا كان الأمر كذلك؛ فلهذا حثه الله على المبادرة إلى الخيرات، من فعل الطاعات، وترك المحرمات، التي تكفر عنه الذنوب والزلات، وتحصل له الثواب والدرجات، فقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ والمراد جنس السماء والأرض، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقال هاهنا: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ أي: هذا الذي أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم، كما قدَّمنا في الصحيح: أن فقراء المهاجرين قالوا: يارسول الله، ذهب أهل الدُّثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. قال: «وما ذاك؟». قالوا: يُصلُّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويُعتقون ولا نُعتق. قال: «أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم: تسبحون وتكبرون وتحمدون دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين». قال: فرجعوا فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال ما فَعَلنا، ففعلوا مثله! فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»(٢).

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝﴾

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية، فقال: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ أي: في الآفاق وفي نفوسكم ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ أي: من قبل أن نخلق الخليقة وتبرأ النسمة. وقال بعضهم: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا﴾ عائد على النفوس. وقيل: عائد على المصيبة. والأحسن عوده على الخليقة والبرية؛ لدلالة الكلام عليها، وقال قتادة: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ﴾ قال: هي السنون. يعني: الجَدْب، ﴿وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ يقول: الأوجاع والأمراض. قال: وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قَدم، ولا خلجان عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر. وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القَدَرية نُفاة العلم السابق ـ قبحهم الله ـ وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عَمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَدَّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة». ورواه مسلم: «وكان عرشه على الماء». ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح(٣). وقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها، سهل على الله، عز وجل؛ لأنه يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

وقوله: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُم﴾ أي: أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا

(١) المسند (٣٦٦٧) والبخاري (٦٤٨٨).
(٢) البخاري (٨٤٣) ومسلم (٥٩٥/١٤٢).
(٣) المسند (٦٥٧٩) ومسلم (٢٦٥٣/١٦) والترمذي (٢١٥٦).

للأشياء قبل كونها ، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها ، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم ، فلا تأسوا على ما فاتكم ، لأنه لو قدر شيء لكان ﴿وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ أي :جاءكم ، ويقرأ :« أتاكُم » أي :أعطاكم . وكلاهما متلازمان ، أي: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم ، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم ، فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً، تفخرون بها على الناس، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي: مختال في نفسه متكبر فخور ، أي : على غيره .وقال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا الفَرَح شكراً والحزن صبراً .

ثم قال : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ أي : يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه ، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي : عن أمر الله وطاعته ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ كما قال موسى عليه السلام : ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم:٨].

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾

يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أي: بالمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات، ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وهو: النقل الصدق ﴿وَالْمِيزَانَ ﴾وهو : العدل. قاله مجاهد، وقتادة ، وغيرهما. وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة ، كما قال:﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود:١٧] ، وقال:﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] ، وقال : ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن:٧] ؛ ولهذا قال في هذه الآية :﴿ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ أي: بالحق والعدل وهو: اتباع الرسل فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا به ، فإن الذي جاؤوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق ، كما قال:﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ (١) رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الانعام:١١٥] أي:صدقاً في الإخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي.ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوؤوا غرف الجنات ، والمنازل العاليات ، والسرر المصفوفات :﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف:٤٣] .

وقوله :﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ أي :وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ؛ ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية، وكلها جدال مع المشركين ، وبيان وإيضاح للتوحيد ، وتبيان ودلائل ، فلما قامت الحجة على من خالف، شرع الله الهجرة ، وأمرهم بالقتال بالسيوف ، وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « بُعِثْتُ بالسيف بين يَدَي الساعة حتى يُعبَد الله وحده لا شريك له ، وجُعِل رزقي تحت ظِلّ رُمْحي ، وجعل الذلة والصَّغار على من خالف أمري ، ومن تَشَبَّه بقوم فهو منهم » (٢) . ولهذا قال تعالى: ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني: السلاح كالسيوف ، والحراب ، والسنان ، والنصال، والدروع، ونحوها ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(١)هي قراءة كما مضى بيانه .
(٢) المسند (٥١١٤، ٥١١٥) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » ، وأبو داود (٤٠٣١).

أى : فى معايشهم كالسكة والفأس والقدوم ، والمنشار ، والإزميل ، والمجرفة ، والآلات التى يستعان بها فى الحراثة والحياكة والطبخ والخبز وما لا قوام للناس بدونه ، وغير ذلك .

وقوله : ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أى : من نيته فى حمل السلاح نصرة الله ورسله ، ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أى : هو قوى عزيز ، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً ، عليه السلام ، لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته ، وكذلك إبراهيم ، عليه السلام ، خليل الرحمن ، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولاً ولا أوحى إلى بشر من بعده ، إلا وهو من سلالته ،كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ حتى كان آخر أنبياء بنى إسرائيل عيسى ابن مريم الذى بشر بعده بمحمد، صلوات الله وسلامه عليهما ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ ﴾ وهو الكتاب الذى أوحاه الله إليه ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ وهم الحواريون ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ اى : رافة وهى الخشية ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ بالخلق . وقوله :﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أى: ابتدعها أمة النصارى ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى: ما شرعناها لهم، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم .

وقوله: ﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ فيه قولان ،أحدهما :أنهم قصدوا بذلك رضوان الله ، قاله سعيد ابن جبير ، وقتادة . والآخر: ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله.

وقوله : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ اى: فما قاموا بما التزموه حق القيام . وهذا ذم لهم من وجهين، أحدهما : الابتداع فى دين الله مالم يأمر به الله . والثانى: فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله ، عز وجل . روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى ، أن رجلاً جاءه فقال: أوصنى. فقال : سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك ، أوصيك بتقوى الله ، فإنه رأس كل شىء ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام ،وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن ، فإنه روحك فى السماء وذكرك فى الأرض . تفرد به أحمد (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

عن ابن عباس : أنه حمل هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب ، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين، كما

(١) المسند (٣/ ٢٨) وقال الهيثمى فى الزوائد (٤/ ٢١٥) : « رجال أحمد ثقات » .

فى الآية التى فى القصص [١] ، وكما فى حديث أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مَوَاليه فله أجران ، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران ». أخرجاه فى الصحيحين. ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك، وعتبة بن أبى حكيم ، وغيرهما، وهو اختيار ابن جرير . وقال سعيد بن جبير: لما افتخر أهلُ الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله هذه الآية فى حق هذه الأمة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ أى: ضعفين، وزادهم: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ يعنى: هدى يُتبصَّر به من العمى والجهالة، ويغفر لكم. فضلهم بالنور والمغفرة .

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال:٢٩] .وقال سعيد بن عبد العزيز :سأل عمر بن الخطاب حَبراً من أحبار يهود : ما أفضل ما ضعف لكم حسنة ؟ قال: كفل ثلاثمائة وخمسين حسنة . قال : فحمد الله عمر على أنه أعطانا كفلين. ثم ذكر سعيد قول الله ، عز وجل :﴿ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ﴾ قال سعيد : والكفلان فى الجمعة مثل ذلك. رواه ابن جرير [٢] . ومما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً ، فقال: من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت اليهود . ثم قال: من يعمل لى من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت النصارى . ثم قال: من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذى عملتم. فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء . قال : هل ظلمتكم من أجركم شيئا ؟ قالوا: لا . قال : فإنما هو فضلى أوتيه من أشاء ».انفرد بإخراجه البخارى [٣].

وروى البخارى عن أبى موسى ، عن النبى ﷺ قال: « مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا : لا حاجة لنا إلى أجرك الذى شرطت لنا ، وما عملنا باطل . فقال لهم : لا تفعلوا ، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملاً ، فأبو وتَرَكُوا ، واستأجر آخرين بعدهم فقال : أكملوا بقية يومكم ولكم الذى شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا : ماعملنا باطل ،ولك الأجر الذى جعلت لنا فيه . فقال : أكملوا بقية عملكم ؛ فإن ما بقى من النهار شىء يسير . فأبوا ، فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم ، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، فاستكملوا أجر الفريقين كليهما ، فذلك مثلهم ومثل ما قَبلوا من هذا النور » انفرد به البخارى [٤] .

ولهذا قال تعالى﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أى: ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رَدّ ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله، ﴿ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

---

(١) وهى رقم (٥٤) .
(٢) ابن جرير فى التفسير (٢٧ / ١٤١).
(٣) المسند (٢ ٥٩٠) والبخارى (٢٢٦٨) .
(٤) البخارى (٣٤٥٩) .